مخزنه وتآمر على ابنه ابشالوم ، وكأنه لا يمت بصلة للاثنين.

واذا كان جون وجرترود ، يمثلان تحلل الاسود وانهيار نظامه القبلي، وعاداته وتقاليده ، فان ابشالوم ، يمثل شقاء الاسود ، الضائع في العالم الجديد ، المدفوع الى الجريمة بلا تعمد ، ودون محيد . ان نمـــوذج ابشالوم ، يمثل الاكثرية العظمى من الشبان السود . لذلك اولاه المؤلف اهمية واضحة ، والح الحاحا عنيفا على شقائه : فهو ابدا متنقل من عمل لعمل ، ومتشرد لا يستقر. وكانت جريمته خاتمة المطاف . وهي جريمة لم تحدث بدافع من الشر ، بل كانت حصيلة طبيعية للظروف ، ولا اثـر فيها للارادة على الاطلاق . لذلك لم نشعر ، كقارىء ، باية ضغينـــة ازاءه ، بل العكس ، كنا اقرب الى الشعور بانسحاقه ، بانه ضحية نظام جائر .. بانه بريء..

الشخصية الاخيرة من الاسرة ، الراعي نفسه : ستيفن كومالو . وفي رأينا انه اعمق وانبل الشخصيات بلا استثناء . فهو بالنسبة للرواية ، كالعمود الفقري للجسم ، لا يستقيم بدونه . ان له خصوصية مستقلة ليست لاي من الشخصيات الاخرى . وفي رأينا ايضا ان عبقرية المؤلف تجلت في خلق هذه الشخصية الرفيعة الطراز . فهو الذي اعطـــى الرواية قيمتها الانسانية الشاملة ، ومغزاها العميق :

هو الذي حمل العبء نيابة عن الاسرة ، ومن اجل افراد هجر موطنه وعليه انصبت الاحداث . فقد كان شقيا بمشاكل اخته واخيه وابنه ، اكثر من شقائهم بانفسهم . والميزة الفريدة لهذه الشخصية : الصبـر على الشقاء ، والقبول الكلي للقدر . وهو صبر المؤمن المطمئن ، لا صبر القصور او العجز .. ودون اي تململ او شكاة . ولقد اعاد الى خيـالي صورة الدكتور جيفاكو ـ بطل باسترناك ... وقد رأيته وتذكرته في كل صفحة من صفحات الكتاب . فهو شبيه باحتمال الالم ، والصبر .. وروح المسيح التي تشع من دون انقطاع .

الشخصية الاخرى المتألقة في الرواية ، شخصية ارثور تريفليـان جارفس : القتيل ، فقد كرس جهوده كلها من اجل خدمة السود . فكتب وحاضر وتعرض لنقمة ابناء جنسه البيض ، ولكنه مضى في طريقه دون اكتراث .

تلي هذه الشخصية ، شخصية ابيه ، جيمس جارفس ، الـــذي تحول عن سيره الاول وآمن بأفكار ابنه المقتول . وبدلا من النقمة عليهم، وخاصة على أبي القاتل : الراعي كومالو ، فانه عقد صداقة معه ، ووزع الحليب على اطفال ندوتشيني المحرومين ، وجلب لهم مهندسا زراعيـــا لاصلاح الارض ، وبنى لهم كنيسة جديدة .. وفعل ، ضمن مجاله ، كـل مايستطيع .

وهي نزعة تفاؤلية من المؤلف ، وايمان بالخير الكامن في طبيعـــة الانسان ، وامتثال للمثل الاعلى في المسيحية : الغفران .

وهناك ايضا الاب تيوفيل مسيمنفي ، الذي بذل كل مايملك ، وضحى براحته ووقته من اجل مساعدة الراعي كومالو ، وكان خير معز لـــه ، وخير صديـق .

واذا كانت الرواية مدينة بنجاحها لما ذكرنا ، فانها ايضا مدينة والى حد كبير ، لفكرة دينية سامية بثها المؤلف في الرواية بشكل غير منظـور الا وهي « المحبة » جوهر الديانة المسيحية ، والمثل الاعلى لها . فقد كانت هذه الفكرة ، الناظم الخفي للاحداث .

الان .. اذ اعود الى ماقاله غابرييل مارسيل في الرواية ، ومـــا قاله اندريه سيففريد ، أجد انهما قالا كل كلمة بصدق وبحق . بـــل ان الكتاب فوق مافيل . وتلك خاصة الاعمال العظيمة : تجل عـــن الوصـف .

وقد كان بودي ان اتحدث عن الموهبة الادبية للمؤلف ، ولكنـــي اؤثر ان يتحدث الكتاب عن نفسه ، فذلك افضل برهان . واخيرا ، اجدني مدفوعا ، بالحب والاعجاب ، لايراد مقاطع من الكتاب ، رغم انه اسلـوب نادر الاستعمال :

ـ التتمة على الصفحة ٦٨ ـ

خمرة الذات

لي عالم ملء ذاتي
أعيش فيه حياتي !
فيه اعانق وحدي
اسراري الغائمات
مسلسلا ما تخبي
من حمرة الذكريات !
وملء ذاتي دنيا
غريبة الرعشات
ومض ... وخضرة نور
مشعشع الهمسات
والف أفق جميل
معطر النسمات
وفيه النجوم زهور
ترش بالحفنات !

*

تقيد ! ... وحدود !
بقية الترهـات !
حريتي وانطلاقي
من واقع لا يؤاتي
وسكرتي وانطلاقي
اشهى أماني الحياة
لا تحبس النور عني
والانسم المنعشات
دعني بربك انسى
نهاية الظلمات
وأصرف السمع حينا
من ضجة الهاويات

*

دعني فنفسي مدام
من أضلع الداليات
أعب منها وأهذي
بأجمل التمتمـات
فينتشي كل عرق
للاحرف الملهمـات !

فؤاد الخشن